المجتمع المتخيل رهانات المواجهة والتغيير في المجتمع التقليدي (دراسة منهجية في انثروبولوجيا الرواية العراقية)

أ.م. د علاء جواد كاظم & الباحثة :ليبيا حسين كريم

جامعة القادسية / كلية الآداب

تسليم البحث :٢٠١٨/٥/٣٠ قبول النشر : ٢٠١٨/٩/٤

الخلاصة:

الفكرة الأساسية لعرض المناهج العلمية تذهب الى رصد منهج عميق لتحليل حركة الانسان في الرواية العراقية، بين الأعوام (٢٠٠٠-٢٠١٧) وسلوكه وتجلياته، والطرق والأساليب التي ينتهجها في مواجهته للواقع، كذلك مواقفه من الحياة ومن الآخر المختلف وصراعه الزماني والمكاني ورؤاه للعالم من حوله. ناقشت هذه الرسالة انثروبولوجيا الادب الروائي وعلاقته بعملية التفكير بوصفه نوعاً من الانشغال الدائم اللصيق بالإنسان، وما ينتج عنه من أفكار وأفعال وأنظمة ثقافية وتصورات عقلية، وكم تقدم تلك النصوص الأدبية السردية وفي مقدمتها الرواية، لبيئة ينطلق منها المبدع في سعيه للخلاص من الواقع المنحط. الثيمة الأساسية التي تستوعب كل هذه التصنيفات. ما هي أنماط المواجهة (المباشرة وغير المباشرة) للإنسان العراقي للتقليدية؟ وكيف أحال مواجهته تلك نحو سردياته الإبداعية.

ان القدرة الإبداعية للروائي العراقي في صياغة (مجتمع متخيل) يتجاوز ضياعات المجتمع التقليدي العراقي التي تحاول الإطاحة بالإنسان وتقفز به بمنأى عن أنماط المجتمعات التقليدية السائدة في منطقة الشرق الاوسط بعامة، والعراق بخاصةً، تلك المجتمعات التي ترتكز على تسلط الأعراف والتقاليد القبلية والعشائرية في حكمها لنواحي الحياة جميعها ، بدءا من سلطة الاب في الاسرة ، الى رجل الدين، تتسم هذه المجتمعات بانغلاقها عن التطور والانفتاح الذي وصل اليه العالم، بسبب خرافات واساطير وأوهام تحول الفرد لشخصية نمطية خاوية،

لقد استنتجت هذه الدراسة ان تلك المجتمعات عادة ما تنتج انساناً شاعراً او خيالياً او حالماً، او كل ما من شانه ان يحرره ذهنيا، من قيود المجتمع، فنجد هذه الرغبة في التحرر في الخلاص تتم

عبر كتابة الشعر او الرواية، فتكون الرواية هي محور هذه الدراسة وكيف جعلت من سلام إبراهيم، وعلي عبد العال وناظم مزهر، والكثير من الشعراء والادباء والمبدعين في كل المجالات ايقونة لوجود المجتمع المتخيل الذي رفض الواقع، وخلق التجديد في تلك الاعمال.

المقدمة

الفن الروائي هو أحد الخيارات التي وضعها المبدعون لتمثيل جزء من عالمنا الاجتماعي، لكن هذا التمثيل لا يكون بشكل مباشر وانما تشير إليه دلالات العمل الادبي، فالثيمات التي وضعها سلام إبراهيم وناظم مزهر وعلي عبد العال في معظم رواياتهم كانت تشير الى وضع الانسان المسحوق وآلام الوطن المستمرة، والمجتمع بصورتيه (المجتمع الام للمهاجر او المجتمع المهاجر اليه)، المنفى الذي كان اختيار الانسان العراقي الوحيد، كان السير الى خطى مجهولة تحمل خيالاته في العيش في مجتمع اخر، مناقضا ومختلفا عما يعيش هو فيه فنجد ابطال رواياته في (جسيكا، أقمار عراقية سوداء في السويد)، هائمين مسحوقين، تفرحهم وجبة طعام بسيطة بحيث يتحدثون عنها بأدق التفاصيل، "... كنت ألتهم رؤوس البصل الخضراء، واقضم حبات الطماطم والخيار والجبن الأبيض والنقانق"(١).

"... ويكون قد اعد للعشاء وجبة خفيفة منقوعة بالثوم الطازج المهروس والمنقوع بالملح والحامض الذي يعصره من حبات الليمون، ويضيف الى الخليط العجيب زيت الزيتون"(٢).

تعكس لنا هذه الصورة عن مدى سحق الانسان في واقع تقليدي ذات خيال مرير، مغتصب في مجتمع منحط، رسم له معالم او قيوداً يسير عليها من غير التفكير بها، ليس له ذنب في هذا الصراع انه أحد افراد هذا المجتمع، فمجتمعنا العراقي صنع من ذكوره (ابطالا اشكاليين) في كل شيء بطل مزيف، فهو الحامي الوحيد لعائلته وهو الأقوى والاذكى، والمدبر، واختزلت كل الحياة بكلمة (رجل)، تقاليدنا قاتلة عمياء لا تعرف الرحمة قتلت فينا الخيال، الحياة ... نجد البطل في رواية أقمار عرقية يبحث عن معنى لا يعرف هو مضمونه، أراد الزواج المثالي او العائلة التي لا تخرج من سياق قطيع المجتمع الام، على رغم من ان ما يدعيه من عدد السنوات التي قضاها في المجتمع الاخر، لم تستطع حتى أن تجعله يخرج عن السائد والتقليدي في قراراته المصيرية، فهذا المهاجر الذي استوطن البلد مدة عشرون عاما لم يكن لدية القدرة على اختيار حتى شريكة مناسبة، هل من المعقول ان هذا الشخص لم يلتق طوال هذه المدة من الزمن بأناس اسوياء يستطيع الاستمرار معهم والاقتران بإحدى بناتهم ام ان تقاليدنا التي زرعت فينا ذلك الخوف من كل مختلف، ابعدتنا ان نكون

بشر حقيقيون، ولم تخولنا من تمكين قدراتنا على التفكير والبحث عن الحقيقة والانجاز اكثر مما كانت ترسخ فينا الاساطير والخرافات التي حولت حياتنا الى ما يشبه ذلك الجدار كل قطع احجاره متناسقة متشابه في الحجم والشكل حتى يحافظ الجدار على ديمومته واستقامته، ارعبتنا من دواخلنا رسمت لنا صورا مخيفة لإنسانيتنا البريئة، وضعتنا في زنازين المذنبين من غير أي ذنب، كيف نستطيع ان ننتظر من هذا الانسان ان يحلق في خيال ابداعي وهو لا يستطيع ان يتخيل شكلا لمجتمعه الصغير (اسرته)، فيذهب الى أصدقائه وذويه كي يختاروا له زوجته، ثم بعد ذلك يكتشف ان ما اختاره ليس بمستوى القناعة التي يرتضيها ومع ذلك لم تؤثر تلك التجربة على منع البطل من التحليق، وانما عاد مرة أخرى الى الوطن الى الأسطورة، ليختار مرة أخرى الشريكة من داخل البلد عسى ان يكمل ذلك الرباط المقدس على افضل حال من السابق، ولكن كانت النكبة في الانتظار، لم يفلح البطل في الاستمرار ووجد العودة الى الاختيار الأول هو ارحم لمسيرة حياته من الاختيار الاخر. عند التعمق في عوالم الرواية، نجد ان انسانها خائف منهزم لا يستطيع وضع استراتيجية او محددات او سلوكية جديدة له يتخطى بها عالمه التقليدي، فأختار الوقوف في دوامة ظنا منه ان الارتطام والكبت والرضا بأقل الخسائر هو اختياره الوحيد، بدلا من الدخول في عالم مجهول من التجارب مع الغرباء والذهاب الى صنع عالم جديد قد تكون الحياة فيه غير مناسبة او من غير جدوى.

الفصل الاول الإطار العام للبحث

الاول: مشكلة الدراسة وتساؤلاتها

حاولت دراستنا في سبرها لأغوار الرواية وعوالمها السردية وانظمتها العقلية فض الكثير من الاشتباكات والمعضلات الانثرو-معرفية، ولكي تحقق هذه الدراسة مبتغاها العلمي والموضوعي في فهم وتفكيك هذه الاشتباكات العميقة، من هنا رأيت ان اضع (نصب عيني) مجموعة من السؤلات رغبة في تحديد الكيفية التي سأجيب بها عن تلك الأسئلة.

١. هل توجد ثمة علاقة بين شكل الرواية نفسه وبنية المجتمع التي ظهرت فيه.
٢. ما هو تأثير القيم الاجتماعية في المجتمع العراقي على الفرد.
٣. الى أي حد يمكن ان نعتبر الرواية الشكل التعبيري الأمثل للمجتمعات
٤. هل الرواية مجرد انعكاس لواقع ولوعي جماعي فعلي كما ذهبت الدراسات السوسيولوجية الى استنتاج ذلك.

الثاني: أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في كونه اعتمد دراسة الادب الروائي بمنهجية أنثروبولوجية دقيقة جدا فقد حاول الاستقلال نوعاً ما عن النهج السوسيولوجي وانشغلت بأنماط التفكير المبدع في صياغة والابداع للمجتمع المتخيل، المجتمع الذي يرمز الى الحداثة والتغيير، في مقاربات أنثروبولوجية مع المجتمع السائد والتراتبي التقليدية بالنقاط الاتية:

١. اذ تعد هذه الدراسة من الدراسات القليلة والنادرة لذا هي تستمد جزءً كبيراً من أهميتها من جدة الموضوع وحداثته.

٢. تكمن أهميتها أيضا في كونها ترصد سيرة انسان معذب اجتماعيا لقرن كامل في هذه الجوانب تم التعبير عنها ادبيا وروائيا.

٣. تتأتى أهمية الدراسة من استحداثها لوثيقة أنثروبولوجية حية وناطقة ووقوفها امام الصياغات الاثنوغرافيا الهائلة التي تتقدم ادبيا

الثالث: اهداف البحث

تتركز اهداف البحث في الاسس الحقلية لأنثروبولوجيا الرواية دراسة لمناهج التحليل المعرفي في النقاط الاتية:

١. محاولة الدراسة اقتحام مجال جديد واكتشاف مساحات جديدة للنظرية الانثروبولوجية خارج مجالات (التقليدية)

٢. التعرف على دور الادب في عمليات التغيير الاجتماعي في المجتمعات

٣. التعرف على الصورة التي سيرسمها مخيل الكاتب العراقي عن المجتمع حينما يكون خارجا عنه يعيش مع ذكريات المعاناة بعيدة عن واقعها

٤. تعد هذه الدراسة مجالا لجذب الكثير من الباحثين لإعادة اكتشاف هذه الأرض البكر في الانثروبولوجيا المعرفية.

مفاهيم الدراسة

أولا: الرواية (The Novel)

كانت وما تزال الرواية حيز اهم حقيقة وجودية واجتماعية في القرن العشرين، فهي الوحيدة التي تلتفت الى مناطق الوجود التي تلجا اليها الطاقة الروحية للإنسان، فوحده الروائي يبحث عن طريقه نحو الواقع الملموس، أي نحو هذا الحوار العدائي بين الانا والأخر، وهو حوار يحاكي بسخرية الصراع الهيغلي لنيل الاعتراف(٣).

ظهر مصطلح الرواية في العصور الوسطى مشيرا في بدايته الى قصص شعرية ثم نثرية، مكتوبة باللغة العامية وليست بالفصيحة (اللاتينية) التي خصصت الأخيرة للنصوص المقدسة، وقد ظهر تأثير تراتبية الأنواع بشكل واضح جدا بسجل اللغة: لكي تناسب النوع الذي يُعدَّ متدنيا من حيث معالجته لمواضيع دنيوية قريبة من المحاكاة التهكمية، الا ان هناك سمة أخرى تبدو مرتبطة جوهريا بمفهوم الرواية، والحكاية، وهي وجود قصة بأحداث واقعية او خيالية، ويمكن وصف الأداء والقول السردي بانهما العناصر المهيمنة في الادراك الأصلي للنوع(٤)، ان مصطلح القول السردي او السرديات Narratology ظهر على يد تزفتان تودوروف، الذي ركز على ان السرد بوصفه ظاهرة من الظواهر الانسانية(٥).

أنثروبولوجيا الرواية او الاعمال الأدبية ان المبدأ الذي تم التصريح عنه بوضوح هو التجانس (Homologies) بين البنى الفوقية الثقافية والبنى التحتية الاجتماعية الاقتصادية او الاجتماعية او السياسية: تصبح الرواية على هذا النحو أحدى اشكال الوصف الخيالي للواقع الاجتماعي او المؤسساتي، لابل لأجهزة الدولة الايدولوجية، غير ان هذه التمثيلات ليس لها صلة في اغلب الأحيان بالوعي، فهي غالبا ما تكون صورا وفي بعض الأحيان مفاهيم، الا انها قبل كل شيء بنى تفرض نفسها على الغالبية العظمى من الناس، من غير ان تعبر عن وعيهم.

ان أفكار انثروبولوجيا الرواية اكدت على ان الرواية تُعكف بأشكالها جميعاً وأنواعها على لغز (الانا) Ego، إذا انها تبتكر كائنا خياليا، شخصية قصَصية، حتى تواجه اليا السؤال التالي: ماهي الانا؟ وبما يمكن إدراك الانا؟ فسؤال (الانا) هو واحد من الأسئلة العميقة جدا التي تقوم عليها صنعة الرواية وجماليتها. ويمكنك ان شئت ان تميز بين مختلف النزعات وربما بين مختلف المراحل في

تاريخ الرواية من خلال مختلف الإجابات التي قدمت عن هذا السؤال، ولم يكن القصاصون الاوربيون الأوائل يعرفون المقاربة السيكولوجية.

منهجية انثروبولوجيا الرواية

تتركز الاسس النظرية لإيديولوجية للرواية في أهمية التمييز بين مصادر انتاج النص الروائي. ففيما يخص الجانب الجمالي يفهم من آرائه ان الإيديولوجيات بوصفها عناصر واقعية تدخل الى النص الروائي كمكونات للمحتوى أي كعناصر مؤسسة للبنية الفنية، وفيما يخص وضعية الكاتب الواقعية فهي التي تكون المسؤولة عن تحديد الذات المتكلمة في النص (من يتكلم؟)، لكن الذات لا تعبر عن نفسها في الكتابة الا من خلال نقيض هذه الوضعية نفسها لان المسالة هنا متعلقة بالتعبير بوصفه حاجةً الى تصحيح هذه الوضعية الذاتية. فبحكم ان إيديولوجيات الكاتب هي غير وضعيته بالضرورة (لان فيها بعض الطموحات التي لم تتحقق بالواقع) فأنها هي التي تحدد شروط المتكلم في النص [٦].

وعلى هذا الأساس فان الإيديولوجيات تدخل الرواية بوصفها مكونا جماليا لأنها هي التي تتحول في يد الكاتب الى وسيلة لصياغة عالمه الخاص، وهذا ما نقصده بالمستوى الأول لوجود الإيديولوجيا في الرواية والذي أطلق علية تسمية الإيديولوجيات في الرواية، ان القيمة الخاصة للرواية كامنة فيما تقترحه على الانسان، في كيفية معرفة الاخرين وكذا فهم الذات لنفسها، والمحبة والشغف ... كل هذا يغلف في نظرة إيديولوجيات في الإنتاج الادبي تلك التي تماثل عقيدة مكتوبة او غير مكتوبة لطبقة اجتماعية. ويعتقد ان هذا المضمون الإيديولوجي يظل خفيا، ولكنه ينكشف عند تحليل النص [٧].

الفصل الثاني

تحليل الروايات

الاول: سلام إبراهيم

الرواية: الارسى

يتحدث موضوع الرواية عن الواقع العراقي، والحياة فيه بوصفها مظلمة وموحشة ومذله ومهزومة وعبثية

الارسى[٨]: مفردة ربما تكون غريبة وغير مألوفة وغامضة نوعا ما وهو بدا لي حين بدأت بقراءة رواية الكاتب سلام إبراهيم[٩] والتي تحمل ذاك الاسم، على الرغم من ان الفارق الزمني هو عقد من الزمن او ربما أكثر قليلا بين جيلينا وان الفوارق الطبقية حينها كانت شبه معدومة اغلب الأحيان لكني لا أتذكر مطلقا ان تلك الكلمة قد طالت مسمعي سابقا ولأني انتمي الى المدينة نفسها التي نشأ فيها الكاتب فقد قمت بسؤال عديد من الأشخاص عن تلك (الارسى) حيث يصفها الكاتب بأن أغلب بيوتات المناطق الشعبية كانت فيها هذه الغرفة المنفردة في موقعها واستعملها، لكني لم أجد ذلك موجودا او واضحا في المناطق الثلاث الأبرز في الديوانية التي سكنتها منذ طفولتي وحتى الان أو حتى في إجابات الناس الذين يكبرونني سنا، وعند سؤالي للكاتب إن كانت (الارسى) هي نفسها تلك الـــ "غرفة كبيرة شبابيكها محلاة بخشب محفر ومنقوش بنقوش عربية لطيفة وهي تمتاز بكثرة شبابيكها وتستعمل لاستقبال الخطار أي الضيوف"[١٠]، أجاب بالنفي واكد انها معروفة جيدا لديه ومستعملاً عند عائلته حينذاك[١١]. فكان استنتاجي الأول عن او الثيمة الأولى هي ان سلام إبراهيم قد سعى الى استعمال الخيال حتى في اسم الرواية، على الأقل عند أبناء جيلي.

موضوع الرواية:

أجد ان الارسى هي جزء من الرواية (حياة الثقيلة) للروائي سلام إبراهيم، ذاكرا جزءاً من سيرة حياته التي قضاها هاربا من النظام السابق لمعارضته له، في بيت احدى قريباته، (عمته).

"في حجرة تقع فوق المطبخ والحمام، واطئة السقف تستخدم كمخزن في البيوت العراقية القديمة، ولها سلم من الباحة الداخلية وسلم قصير يصلها بالسطح"[١٢].

– الاختباء هو الحل: عندما يؤمن الانسان بفكرة لتغيير حياته وتغيير واقع من حوله الى الأفضل فيروم طرح أفكاره، لكن العائق هو عدم وجود المساندة الحقيقة والكافية لتحقيق الهدف! فهل من الحكمة ان يقضي حياته في السعي وراء هدف نسبة النجاح به لا تصل مستوى الاقناع؟ ما هي الغاية من اختباء المناضل فترات تطول على ما يقرب السنوات، وهل لفترة الاختباء فائدة لتحقيق الهدف؟ هل هناك معارض حقيقي للنظام السابق يعلم علم اليقين انه الأقوى؟

استوقفتني هذه الجملة في الرواية: "ستنذهل مرارا ورفيقك يضم قطعة خبز في ظرف عصيب، او يجبن في لحظة حاسمة او يزاحمك في الاكل واللبس والشراب. دع عنك كل أحلام الثورة النقية وشرف مقاتليها فهم ليسوا انبياء"(ص: ١٦)

لماذا يختار هذا المصير لحياته وهو يعلم كل قدراته، ويعلم ان كل من حوله من الجهلاء اقصى ما يقومون به لدعمه هو التعاطف معه في المواقف البسيطة، فاذا كان رفيق دربك ومن يؤمن بقضيتك في هذا المستوى من الاخلاق، يزاحمك على احتياجاتك اليومية ويتخلى عنك في المواقف الحرجة، فكيف نؤمن ان مسار الثوار لتحقيق أهدافهم هو الطريق الصحيح، هل يعقل ان يكون الفكر الثائر مبني على المصادفات والحظوظ السعيدة، لا على التخطيط المسبق المتقن المبني على الخطط ولاستراتيجيات التي كنت اقرأ عنها، واشاهدها في أفلام الحروب والانقلابات التي تحدث في البلدان.

– ماهي أفكار الانسان عند وجوده في حيز مكاني محدد: في أكثر من مئة صفحة كان الكاتب يصف جسد المرأة ابتداء بحنينه واشتياقه لزوجته، ثم بعدها لم تفلت انثى الا وكانت تحت مجهر قلم الكاتب في وصف لتضاريس جسدها، وحتى عمته المنكوبة وابنتها كانتا ضمن دائرة ذاك الوصف، وكذا الجارة ناديا وحتى النسوة التي ترددت على بيت عمته، بغرض الزيارات يقوم بوصف كل ما تقع علية عينه من أجسادهن، فأفكر كم يأخذ التفكير بالجنس حيزا من أفكار عقل الانسان ووقته، وهل الجنس بهذه الطريقة يزيد من توتر الشخص او تقلل توتره.

نرى العقول البشرية لا توظف أفكارها الا في أسهل وأقرب الأفكار وهي الغرائز. في هذه الثيمة حاول الروائي القفز على تحديات المجتمع التقليدي وصياغة رؤية متخيلة، عن العلاقة بين المرأة (جسد المرأة)، عقلية المرأة، حرية المرأة، مستقبل العلاقة بين الرجل والمرأة. في أحد منشورات الروائي على صفحته الشخصية يروي حكاية ظريفة عن أحد أحفاده الذي لا يتجاوز سن العاشرة وعلاقته بزميلة له المدرسة، ويستذكر حياة الرجل العراقي الذي يضل محروما حتى من التحدث مع المرأة الى ان يدخل الجامعة، كل ذلك الكبت ليس لدى الرجل فقط بل وحتى الانثى، وهو يدخلهم في دوامة التأويل لتلك العلاقات ويعطي أفكارهم تصورات وتخيلات لا تمت الى الواقع الجنسي بين الرجل والمرأة بأي صلة، ومن جهة أخرى يجعل الفرد في قلق وتوتر دائم وعدم استقرار، وشعور بالنقص، مما يبعد الفرد عن التفكير بصوره اعمق، فالمجتمع من حولك هو من يصنع او يتدخل في طرق تفكيرك بما يوفر لك من حريات تجعل من تفكيرك يتجه اما للتحليق بالأحلام والتخيلات او مجتمع بائس يقتل التفكير ويجعل الفرد في متحيراً لا يخرج من دائرة التفكير التقليدي في كيفية تدبير يومه، وشؤونه الاقتصادية.

– صورة للمرأة العراقية: منذ ما يقرب من خمسين عام والمرأة العراقية هي تلك المرأة المهددة بالعيش وحيدة، في أي لحظة وتحت أي ظرف تفقد ابنها، أو زوجها، أو ابيها أو اخيها،

ولأي سبب كأن يكون منتميا الى أفكار جهة حزبية، او دينية او اجتماعية او حتى أحيانا لا ينتمي لا من هذه الجهات ولكن يفقد حياته للاشتباه به فحسب، او يكون فقد في أي من الحروب والانتفاضات التي توالت على العراق، منذ سقوط الملكية، الى حرب الاكراد، حرب إيران، حرب الخليج، الاحتلال الأمريكي، نهاية المطاف (داعش).

كل هذه الظروف كان لوضع المرأة الدور الأساسي في انتقال أعباء الحياة اليومية على كاهلها نتيجة لغياب الرجل مما زاد في بؤس المرأة العربية، والعراقية بصورة خاصة وتضعها في دوامة لا تنتهي من الماسي والعذابات مما يجعلها تنسى أي معنى للحياة، توضحت هذه الماسات في صورة عمته، وزجته والنساء جارات العمة.

– التكرار: كان هناك تكراراً مملاً للجمل ولاسيما في الجمل التي كان يصف فيها جسد زوجته، وشوقه لها فقد بدا غير منطقي في تكرارها في عدة صفحات يبتدأ من الصفحة رقم ٢٠ حتى نهاية الرواية.

"كنت أحس بجسدك الساخن لصقي متأججا مثل تنور، فامعن في شدة التصاقي، وبغتة يضج الصمت بلغط، ملكت كياني وضمرت دون كل المعاني"(ص: ٢٣).

ثم يكرر في الصفحة التي تليها "يا ملاكي الغائب... " أنصت لنعومة جسدها الخائض معي في السكون الفوار، في احشاء الظلمات، اغور بصحبتها في الصمت المريع، اغور مفتوح العينين، تام الصحو، سليم الحواس"(ص: ٢٦٢).

– يعود في نهاية الرواية الى وصف حياة المجاهدين في الجبل وما يتعرضون له من اهوال يومية، والقصف المستمر، ثم الأسلحة الكيمائية التي تعرضوا لها، وما أصابه من حادثة التي افقدته ذاكرته مدة من الزمن يستذكر احداثا، لا يستطيع نسبها الى زمنها الواقعي بسبب إصابتة في الجبل التي اودت بذاكرته، مستمرا في الانتقال والوصف حتى النهاية، عن معاناته مع المرض.

– كانت رواية من قلب الواقع العراقي البائس فهذه الاحداث لا تقتصر على افراد الأحزاب المعارضة فحسب، وانما قد ذاق عذابها وآلامها الكثير من العراقيين، ففي فترة الحصار التي دامت ثلاثة عشر عاما، أوقفت التقدم في العراق كل هذه الفترة وجعلت همّ الفرد العراقي الوحيد له هو كيفية تدبير شأنه الاقتصادي، فتوقف عن التفكير باي شيء اخر، فهناك علاقة بين الاقتصاد وبين الابداع والمتخيل فكلما كان الفرد مكتفياً اقتصاديا قل التفكير بكيفية تدبير الشؤون الاقتصادية مما

يزيد التفكير ويعطي مساحة اكبر للتفكير في كيفية تطوير الأفكار المهمة في عقل الانسان، فيذهب العقل الى الأفكار الأكثر عمقا في تطوير ما حوله وتكوين مجتمع متخيل.، فكنا نرى ان كل من غادر العراق في فترة الحصار من المحظوظين. فقد فاز بمستقبل له ولأبنائه بعيدا عن مسلسل البؤس الذي لا ينتهي في هذا البلد، ولا وجود لأي حلول تستطيع ترميم ما يعاني منه. هذه ليست سيرة حياة سلام إبراهيم بل هي سيرة لحياة اغلب العراقيين.

مثلما حملت الرواية الكثير من الخيال الروائي الممتزج بالواقع المدمى للإنسان العراقي، في تلك الفترة، والذي ذاق الامرين كل من كان له آراء تختلف عن آراء السلطة الحاكمة، فمثلت هذه الرواية مجتمع الواقع الذي كان المجتمع الانحطاطي الذي كان مصدر عذابات الفرد وعنوان كل الآلام، اما المجتمع المتخيل فكان ذلك الفرد الذي يحلم بالحياة الحرة الكريمة التي تنتشل هذا المجتمع من مآزقه وتذهب الى مصافي الدول المتقدمة، فكان الرهان على تغيير هذا الواقع ومواجهة التحديات يتطلب الكثير من المجتمع، ولا يمكن لأفراده صنع هذا التغيير مهما كانت تحدياتهم وآمالهم كبيرة، لكن سلام إبراهيم قام بصياغة ذلك العالم البديل الذي كان واضحا في الصور التي قدمها من خلال روايته، فوصفه لمدينته(الديوانية)، وكانه يقرأ وينسخ تفاصيل المدينة، ثم يحول تلك القراءة الى ادب روائي، المنازل، والناس، والشوارع، والذكريات، كان يشعر بكل ما كان يكتبه، كان يقدر حياته كان متعمقا في ما هو فيه حتى تكراره الممل كان يحث على تأكيد ما كان يحصل من تمزق في المجتمع.

ان المصداقية والموضوعية في السرد الروائي هي من تتقدم بمستوى الادب والابداع فكلما كان المبدع يصدق فيما يكتب ثم يجعل منه موضوعيا أي يستطيع القارئ تصديقه، فكانت طبيعة المتخيل في سرد سلام إبراهيم تتميز بالجراءة وعبور تقليدية المجتمع، بصورة مجازف بها عرضت الروائي الى مشكلات ومطبات عائلية، كما صرح في أحد لقاءاته، اثارت حفيظة المجتمع وهو يقرأ ما لم يألف، فكان تعمقه في وصف الجنس بطرق واضحة وصريحة.

الثاني: روايات علي عبدالعال

الرواية:(أقمار عراقية سوداء في السويد)

أقمار عراقية سوداء في السويد [١٣]، يتحدث موضوع الرواية عن المهاجر العراقي.

الثيمات الأساسية للفصل الأول،

– حركة البطل في هذه الرواية عبارة عن منولوج يكشف البطل فيه عن رغباته الدفينة التي تشبه الكثير من الرغبات الذكورية لدى الرجل العراقي إذ يكون متحيرا بين ان يكون ذلك الطائر المحلق الحر الطليق، وبين ان يتخذ دوره الاجتماعي المحدد سابقا في تكوين اسرة."... انا أعيش راضيا في بلاد الغرب، لكن الخطأ الذي لم أفكر به وللحظة هو انني كنت اريد الزواج كما لو انني لم اغادر الوطن اصلا"(١٤).

نجد البطل مشطورا بين الحياة الحرة التي تتوفر بها كل الملذات دون عناء، او قيد او تكلفة ويمارس ما يحلو له من السفر والصداقات والجنس وكل خيالاته المجنونة، فهذه الاحلام هي أحلام معظم الشباب الذي قضى حياته بالحرمان العاطفي فالمرأة التي كانت جوار الفرد العراقي هي المحرمة التي لا يمكن لمسها الا ساعة امتلاكها بالزواج منها، لا صداقات معها ولا علاقات، وما فعله البطل اختار العالم التقليدي وذهب الى الزواج من احدى الفتيات من بنات بلدة بنت "الحاج محمود اغا" بعد ان رشحها أصدقائه له. انه الانسان المهزوم الخائف تسيطر عليه الأعراف والتقاليد على الرغم من ابتعاده عنها، فتنتفي صفة المكان من العالم التقليدي، فعلى الرغم من ان بطل الرواية يعيش في عالم اخر تتوفر فيه مساحة من الحريات المنضبطة والمشروعة لكنه واقع تحت تأثير التلقين الاجتماعي فله تأثير أكبر، من العالم الخيالي الذي يحلم به ويتوق للاستمرار به، ان المبدعين والمغامرين فقط هم من يختارون الاختلاف من غير خوف او تردد، لكل منا عالمٌ خياليٌ.

– رصد حركات البطل: نلاحظ بالفصل الثاني ان البطل بدى أكثر سلبية وأكثر ارتباكاً وفوضوية في دخوله "عالم القطيع" الجماعة التقليدية التي اختار العيش فيها من مشاكل الأصدقاء والجيران والعائلية التي تجعل الفرد في دوامة غير منتهية من التفاهات والتدخل في الخصوصيات وعدم الوصول الى أي نتيجة مجدية.

"تركت الحديث لزوجتي التي ارتبكت وهي تستقبل هذه الزائرة التي لا تعدو ان تكون سوى زوجة أحد معارفي الهامشيين اكتفيت بمشاهدة الدموع المنهمرة على وجهها المضطرم المليء بتعبيرات البكاء العادية لامرأة محطمة"(١٥).

يبدا الكاتب في هذا الفصل بوصف الزوجة المنكوبة التي تبحث عن بقايا زوج، وتستجدي عطف الأقارب والأصدقاء لعلها تصل الى نتيجة، ذهب السرد والحوارات في هذا الفصل الى الكشف عن سهراته ولقاءاته مع أصدقائه في المهجر (السويد) ووصف تلك الليالي من البهجة والسرور في تناول الوجبات معهم، وذكر أحاديثهم ووصف كثيف ومعمق ودقيق وأحيانا يصل الى التكرار الممل،

للمواقف واللقاءات بأصدقائه فيصف فيها وجبات الطعام وكذلك والأماكن التي يرتادونها وحتى زجاجات الكحول والانواع الجيدة والرديئة منها، كأنما يصف لنا حياة المهاجر في البلدان الغربية والحريات المطلقة في السهر و الاستمتاع بالحياة من غير قيود او أي منغصات وهو يجري هنا مقارنة لا واعية لانتقالات الانسان بين مجتمعين التقليدي الذي لا يتيح الفرصة للفرد العيش بهذه الطريقة، والمجتمع الحديث الذي يبيح له كل شيء، والنتيجة تكون ولادة مجتمع متخيل محبط تماما، تعمه الفوضى ليس لديه هدف واضح عما يريد. ويعود في (ص: ٤٠) ليتحدث عن صفات الزوجة الصالحة، هنا تكمن التناقضات للكائن الذي لا يحمل معنى الحقائق، فهو لديه رغبة بالارتباط بالفتاة المتحررة، لكن سيطرة عاداته وتقاليده عليه فهي التي تشكل عالمه من حوله لا يستطيع الخروج عنها، والافصاح عن رغبته الحقيقة، وينصاع لخوفه ويترك خياله وامنياته سجينة أفكاره.

– من سلبيات البطل أنه لم يذكر صداقاته مع السويديين سوى (صوفيا) الفتاة التي كان يمارس معها الجنس، تشير لنا هذه الثيمة الى ان المغترب العربي يخاف جدا من الاختلاط والدخول في علاقات مع الغرباء، فيختصر علاقته بهم، ويذهب الى البحث عن أبناء بلده لتوطيد العلاقات معهم، ومرة أخرى نجد مجتمع العادات والتقاليد يتفوق على المتخيل الذهني الذي يرى في تكوين الصداقات والعلاقات مع الاخر هو تغيير لوجهة أفكاره.

– نوع المجتمع الذي يحيط بالبطل، يصف لنا مجتمعاً منحط دوني لا يحمل أي معنى للأخلاق، يبدا من وصف (دياري) اخت زوجته تلك الفتاة التي تترك رجالات العالم وتضع نفسها في موضع منافسة مع زوج اختها، غير مبالية باي نتائج لأفعالها، ومن ثم يصف لنا شقيق الزوجة (العمدة) البدين الذي يأكل أكثر مما يتحدث، وبعض من سلوكياته الشاذة، التي لا تنم عن اي ذوق اجتماعي، اما (سردار) و (مصطفى الغول) فبحث اخر من قمة في انعدام الأخلاق وانعدام الإنسانية فهم مثال لمجرمين لم يفلح القضاء في إيجاد الدلائل حولهم، كل هذه السلبيات لأفراد لمهاجرين في الوطن الاخر، قد لا تكون التقاليد او التربية المنزلية مسؤولة عنها فهناك عبارة في الصفحة (ص: ٦٢): "كيف لعائلة عراقية تحديد سلوكها العام ونصف تكوينها ذاب في المجتمع الجديد "فكيف للأم تحديد سلوكيات أبنائها وهم يتلقون في مدارسهم دروسا عن الحريات الحقيقية ؟ وكيفية استخدامها ويعرضون لهم الأمثلة الحية لممارسين الحريات، الا إذا كانت الأم على درجة عالية من الذكاء والفطنة وتستطيع ان تكيف كل ما يراه أبنائها ويتعلمونه مع التنشئة المنزلية حتى لا يقع الأطفال في ذلك التناقض الذي تشكو منه معظم الاسر المهاجرة، في التعامل مع الأبناء، فتحيلهم الى افراد متمردين او منطوين او لا اخلاقيين.

– فيما يخص الروائي فقد نجده قابعا في كل المواقف والصفحات من السرد وأحيانا نجده ذلك المتفرج الذي ينقل تجارب ما حوله ليعرض للقارئ الصورة الحقيقة لأفراد واسر لم يتكيفوا مع المجتمع الأخر، ثم نجد في بعض الصفحات مدى فلسفة الروائي عن الحياة وتظهر لنا بوضوح نظرته للحياة ففي الصفحة رقم (ص: ٩-١٠).

"... الخطيئة شيء منقرض، اختراع رجولي حقود وحسود ينم عن نفوذ عضلي وجسدي قوي، انها رغبة دفينة باحتكار الجسد، رغبة حسية واعية بالاستعمار الشخصي..."(١٦).

وحينما يتحدث عن جسد المرأة ومدى تقديس الرجل له واختيارها من بين أكثر الخيارات ليس لمفهوم الرغبة فحسب وانما هي الأكثر قربا لإمتاعه الفكري والذهني والحسي والوجداني فهي ليست رغبة جسدية وانما الجسد هنا يستعمل أداة فحسب، فلنتصور شخص مختل عقليا هل يستمتع او لدية الرغبة نفسها في ممارسة الجنس من الشخص السوي، واذا اردنا الايضاح اكثر لهذه الأفكار، نستطيع ان نعطي مثلا في طعام الانسان لأنواع الطعام والانواع المفضلة لدية ثم نقوم بتجريده من حواسه (مثال: أي غلق انفه وامتناعه عن حاسة الشم والنظر والتذوق ثم نأتي بأنواع مختلفة من الطعام هل يستطيع في ذلك الموقف ان يفرز او يصنف الأنواع المفضلة له، فوجود المرأة مع الرجل صورها لنا الروائي على انها حاجة فكرية اكثر مما هي رغبة وقتية او ما يطلق عليها "بالخطيئة".

"نحن رحنا نكذب بدورنا ونخترع القصص العظيمة. نخترع الآلهة والعبادات والاساطير والأديان من كل الأنواع. ونخترع الروايات والقصص القصيرة والقصص الطويلة منذ الحكواتيين المخضرمين، كهنة المعابد في بابل، ومنتجي الالهة من الفراعنة، وهوميروس..."(١٧).

– الطبقة الاجتماعية: التي طرحها الكاتب هي الطبقة الوسطى التي تنتمي الى أصول عشائرية واجتماعية اصيلة، لكن هي طبقة غير ثرية، جاء هذا الاستنتاج عندما وقع اختيارهم لزواج صديقهم، فاختاروا له بنتا من العوائل الاصيلة (اهل ولاية)(*) واحيانا نطلق عليها في تسمياتنا باللهجة الدارجة كلمة (لملوم)(**) حيث تجد في هذه الطبقة الطبيب او الأستاذ الجامعي وأخيه غير المتعلم ينتمون الى العائلة نفسها او تجد الاب والام من حملة الشهادات العليا في حين أن الأولاد من أصحاب التعليم اولي فحسب، تعكس هذه الأمور ان هذه الطبقة هي ليست الطبقة البرجوازية التي تحافظ على مستوى الاسرة الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي في مستوى مقارب، ولا تلك الطبقة الفقيرة المسحوقة، تكون أفكار هذه الطبقة مشوشة وفوضوية، فأحيانا تنحى منحى الجدية والالتزام

ومرة تجدها غير مبالية بكل ما حولها فشخصيات روايتنا اجدهم متقاربين بالأفكار والتصورات متذبذبين بأفعالهم بين الصالح والطالح، نتيجة انتمائهم الى الطبقة نفسها. وهذا التقارب الطبقي الذي يسعى إلية جميع الافراد ليبقى تحت اجنحة الطبقة التي ينتمي اليها حتى يتخلص من المسؤولية، فالسر في بقائنا تحت اجنحة التقليدية والعادات يكمن في سلبيتنا وعدم قدرتنا على مواجهة المجتمع، ودائما نذهب الى الخيارات الاسهل.- المكان: تحديد المكان لم أجد الكاتب قد اعطى المساحة الكافية للمكان في روايته، فأحداث الرواية في السويد لكن الكاتب كان بخيلا في عرض جزء من جمالية المكان الا في بعض الصور "الصيف هنا مثل خريف مبكر، امطار وغيوم وموجات برد غير متوقعة، نفرح بأيام مشمسة معدودة يهرع فيها الناس الى خلع ملابسهم للتنعم بأشعة الشمس اللذيذة"[١٨].

- ظهور صورة المرأة العراقية التي لم تؤثر عليها عادات الغرب، فالمرأة في العالم الأوربي تخلصت من سلطة الرجل من الناحية النفسية أولا، فهي لا تنظر الى الرجل على انه هو الحل السحري لكل معاناتها، مثلما تضعه المرأة العربية في أولويات قائمة حياتها فظهرت صورة المرأة قريبة (اسد) عند هجر زوجها لها: "لقد طلقني وغادر البيت، هذا مفهوم. لكن ان يتزوج امرأة أخرى، هذا كثير ربما يعود الى اطفاله، ويرجع الي من جديد"[١٩]. وفي صورة أخرى موقف (دريا) زوجة اسد البطل عند معرفتها بذهاب زوجها الى العراق كي يختار زوجة جديدة [٢٠]:

- قالت لها اختها دياري بغباء فطري.
- ماذا ستفعلين؟
- سأمنعها من المجيء الى السويد!
- سأبذل المستحيل!

نرى المرأة العراقية او التقليدية وتمسكها بالزوج كأنها تمتلك هذا الشخص، وان الحياة لا تسير الا مع وجود الرجل لاغيةً بذلك كل معنى للمساواة بين الجنسين من الناحية الفكرية. ومن كل ما تم وصفه في هذه الرواية نجد صورة الانسان المهزوم فاقد الإرادة في رسم صورة لبناء حياة جديدة له دون تدخل العرف والتقاليد، فهو على الرغم من ابتعاده كل هذه المسافة لكن تبقى للتقاليد السلطة على أفكار معتنقيها من غير تفكير او تردد، فنجد متخيل المرأة العراقية الفكري لا يدور سوى على فكرة واحدة هي الحصول على الرجل المناسب الذي يرضي المجتمع واسرتها.

المصادر

٦. . عبدالعال، علي: أقمار عراقية سوداء في السويد، (بغداد، المدى للأعلام والثقافة والفنون)،٢٠٠٤، ص ٥٧.

٧. عبدالعال، علي: جسيكا، (دمشق، التكوين للتأليف والترجمة والنشر)،٢٠٠٨، ص٦٣.

٨. جيرار، رينيه: الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية، تر، رضوان ظاظا، (بيروت – مركز دراسات الوحدة العربية)، ٢٠٠٨، ص ١٤٥.

٩. فاليت، برنار: الرواية مدخل الى مناهج التحليل الادبي وتقنياته، تر، سمية الجراح، (بيروت – دار المنظمة العربية للطباعة والنشر)، ٢٠١٣، ص٢٩.

١٠.العجمي، مرسل فالح: الواقع والمتخيل أبحاث في السرد: تنظيرا وتطبيقا، (الكويت–مجلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، العدد ٦، ٢٠١٤، ص ٢٣.

١١.حميد، لحميدات: سوسيولوجيا الادب، النقد الروائي والايديولوجي، (بيروت، المركز الثقافي العربي)، ١٩٩٠.

١٢.سلام إبراهيم: رواية الارسي، (القاهرة – الدار للنشر والتوزيع)، ٢٠٠٨، ص٧.

الهوامش :

١ – عبدالعال، علي: أقمار عراقية سوداء في السويد، (بغداد، المدى للأعلام والثقافة والفنون)،٢٠٠٤، ص ٥٧.

٢ – عبدالعال، علي: جسيكا، (دمشق، التكوين للتأليف والترجمة والنشر)،٢٠٠٨، ص٦٣.

[٣] – جيرار، رينيه: الكذبة الرومانسية والحقيقة الروائية، تر، رضوان ظاظا، (بيروت – مركز دراسات الوحدة العربية)، ٢٠٠٨، ص ١٤٥.

[٤] – فاليت، برنار: الرواية مدخل الى مناهج التحليل الادبي وتقنياته، تر، سمية الجراح، (بيروت – دار المنظمة العربية للطباعة والنشر)، ٢٠١٣، ص٢٩.

٥ – العجمي، مرسل فالح: الواقع والمتخيل أبحاث في السرد: تنظيرا وتطبيقا، (الكويت–مجلة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب)، العدد ٦، ٢٠١٤، ص ٢٣.

٦. لحمداني، حميد: سوسيولوجيا الادب، النقد الروائي والايديولوجي، (بيروت، المركز الثقافي العربي)، ١٩٩٠، ص٢٨.

٧. لحمداني، حميد: المصدر السابق، ص٤٢.

٨ – رواية: لسلام إبراهيم:(منشورات الدار للنشر والتوزيع–لقاهرة) ٢٠١٥، عدد الصفحات:٢٦٢صفحة

٩ – روائي عراقي من مدينة الديوانية ولد في خمسينيات القرن الماضي كان ينتمي الى الحزب الشيوعي، مما سبب له الكثير من المشاكل مع النظام السابق، ارتأت الباحثة ان تبدأ التحليل بروايات سلام إبراهيم، كونها اقوى سردا، وأكثر جراءة من باقي الروايات، العراقية في التعبير.

١٠ – عزيز جاسم الحجية: بغداديات تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال مائة عام، (مديرة الفنون الثقافية والشعبية في وزارة الثقافة والاعلام العراقية، بغداد) ١٩٦٧.

١١ – سلام إبراهيم: الارسى، حوار مع الباحثة عبر مراسل الشبكة الاجتماعية فيس بوك، ٢٠١٨/٤/١٤.

١٢ – سلام إبراهيم: رواية الارسى، (القاهرة – الدار للنشر والتوزيع)، ٢٠٠٨، ص٧.

١٣ – عبدالعال، علي: أقمار عراقية سوداء في السويد، (بغداد–المدى للأعلام والثقافة والفنون)،٢٠٠٤، عدد صفحات:٢٤٥، عدد الفصول:١٠.

١٤ – عبدالعال، علي: المصدر السابق، ص ١٧.

١٥ – عبدالعال، علي: المصدر السابق، ص ٣٤.

١٦ – عبدالعال، علي: المصدر السابق، ص ٩.

١٧ – عبدالعال، علي: المصدر السابق، ص ٦٠.

* – تسمية تطلق على العوائل التي تسكن وسط المدينة او مركز المدينة.

** –تسمية باللهجة الدارجة على العوائل التي تنتسب أصولها لعدة مدن، ولا تنتمي للمدينة التي تسكن بها.

١٨ – عبدالعال، علي: المصدر السابق، ص ١٤٣.

١٩ – عبدالعال، علي: المصدر السابق، ص ٣٤.

٢٠ – عبدالعال، علي: المصدر السابق، ص ١٥٥.

Abstract

The methods research in novel anthropology represent the scientific ways to acknowledge, the ways can the writers if these novels image the traditional society. When live in the far away and different social environment. Therefore, we try to show the most important methods. In this study, we try to encourage the other anthropological researchers.

The art types had very important role in the reduced the element of social structure in modern societies. The Iraqi society need to understand this role so as to occupied these novels to create new values and norms in both levels formal and in formal

Alienate Iraqi novelists try to face the social problems in these levels above when the show the social problematic of freezing in the changing operation to get progresses in the deferent fields of people life. Which represents the study objects and it is important. While the researcher goals concentrate on get the Iraqi anthropologists to this scientific field in the anthropological study.

Iraqi novelists had ability to make chances to guide the social operation changes on the political level at first and other sides of social life when he make his imagination as suggested values to rebuilding the social structure in the Iraqi society.